

الامام الحسين عليه السلام في ادب الاندلس

الدكتور حسين چوبين

خلاصة البحث :

بعد ان ضفت دولة الامويين في الاندلس ظهرت دول يحكمها السادة الحسنيون ومنهم آل (حمود) ودولة الموحدين... وظهر بينهم شعراء محبون لاهل البيت (ع) فمدحوهم ورثوا الامام الحسين عليه السلام بأشعارهم وهجوا بني أمية لظلمهم وفسقهم، ومن اولئك الشعراء : علي بن بسام وصفوان بن ادريس ومحمد بن هاني الاندلسي وغيرهم ونظم بعضهم أشعاراً تضاهي أشعار دعبل والكميت والسيد الحميري وكثير عزة، وقد أوردت في هذا البحث قسماً من اشعار هؤلاء الشعراء الملتزمين بحب اهل البيت وبصورة خاصة بحب الحسين عليه السلام.

مواضيع البحث :

المقدمة

- ١- الاندلس لغةً وتاريخاً وأدباً.
- ٢- ادب الشيعة في الأندلس.
- ٣- تقاليد أهل الاندلس في ذكرى استشهاد الامام الحسين عليه السلام
- ٤- الشعراء الاندلسيون الذين رثوا الامام الحسين عليه السلام وهجوا بني أمية.
- اولاً: احمد بن درّاج القسطلي.
- ثانياً: أبو البحر صفوان بن ادريس المرسي
- ثالثاً: الجراوي.
- ٥- قصيدتان في مدح الامام الحسين عليه السلام نظمهما الدكتور حسين چوبين.

المقدمة :

المئات والمئات من الشعراء رثوا الامام الحسين عليه السلام وخير كتاب أُلّف في هذا الميدان كتاب : (أدب الطف او شعراء الحسين عليه السلام) ومؤلفه: حجة الاسلام والمسلمين السيد جواد شير النجفي وقد طبع هذا الكتاب النفيس في النجف الاشرف وفي بيروت عدة مرات وذكرَت فيه أسماء شعراء أندلسيين رثوا الامام الحسين عليه السلام ومنهم : صفوان بن أدريس الذي ذم في أشعاره بني أمية ومدح أهل البيت والحسين عليه السلام بصورة خاصة.

كما جاء في كتاب: (دائرة المعارف الاسلامية الشيعية) للاستاذ حسن الأمين أسماء عدد من الشعراء الشيعة في الاندلس ومنهم : محمد بن هاني الاندلسي وأبو عبد الله وعبادة ابن السماء واحمد القسطلبي وعبد الرحمن الأشبوني وأبو البحر المرسى والجرأوي، وفي هذا التحقيق نقدم مجموعة من القصائد الحسينية التي نظمها هؤلاء الشعراء الاندلسيون.

١- الأندلس لغةً وتاريخاً وأدباً :

الاندلس (Ansalusia)^(١)

مقاطعة تقع في جنوب اسبانيا، ولها اسم آخر في بعض الكتب العربية وهو المغرب^(٢)، وقد فتحت في عهد الوليد بن عبد الملك، في أواخر القرن الهجري الأول، وكان فاتحها موسى بن نصير الذي أهمله الأمويون فمات منسياً!

في النصف الاول من القرن الهجري الثاني وبعد سقوط الأمويين في الشام فرَّ عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي إلى الأندلس وأسس هناك الدولة الأموية المروانية الثانية، واستمرت حوالي أربعة قرون، وحكمت دول الطوائف الأندلس بعد سقوط الأمويين وتعرف هذه الفترة بفترة الطوائف واستمرت حوالي أربعة قرون أيضاً، وبعد سقوط الأندلس بيد الأفرنج في أواخر القرن التاسع الهجري تحوّل الأمويون فيها الى نصارى ويهود^(٣)، والذي يؤيد هذا أننا لم نسمع لهم أي صوت اسلامي بعد سقوطهم، كما أننا لا نرى اليوم أي نسل اسلامي منهم لا في الأندلس ولا في شمال افريقيا.

(١) البعلبكي منير، قاموس المورد، انجليزي عربي، حرف (A).

(٢) قصص العرب، طبع مصر، ٤٤، ص ٩١ (النص والحاشية).

(٣) مجلة آخر ساعة المصرية، في تحقيق عن مصير الأمويين ونسلهم في الأندلس في أواخر سنة (١٩٦٠)، ولم يرد شرح عن بقى من نسل بني أمية في كتاب (صبح الأعشى) للقلقشندي مع أنه جاء شرح عن بقى من نسل بقية القبائل.

أما الأدب في الأندلس فقد بقي تقليدياً طيلة أربعة قرون ثم ارتقى مدة قرنين، وبعدئذٍ انحط طيلة قرنين تقريباً، ونشير هنا الى حقيقة ناصعة وهي أن الأدب الأندلسي لم يكن أمورياً بصورة كلية، بل اننا نرى أن قسماً من أدب الأندلس كان أدباً اسلامياً أصيلاً ومنه أدب حسيني، بعيداً عن الخلاعة والمجون، فهناك مدائح في حق أمير المؤمنين الامام علي عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام ومراثٍ حسينية.

٢- أدب الشيعة في الأندلس :

أدب الشيعة له تاريخ عريق وخير شاهد على ما نقول : كتاب «الغدير» للعلامة الأميني النجفي وكتاب «أدب الطف» وللسيد جواد شير النجفي، وقد ظهرت للشيعة دول في بلدان مختلفة بما فيها الأندلس، كدولتي الأدراسة والمُوحدين^(١)، ومن الشعراء الشيعة في الأندلس:

- ١- محمد بن هاني بن محمد بن سعدوان الأندلسي
- ٢- أبو عبد الله العسيني
- ٣- عبادة بن عبد الله الأنصاري المعروف بلقب ابن السماء
- ٤- أحمد بن درّاج القسطلي
- ٥- عبد الرحمن الأشبوني
- ٦- أبو البحر صفوان المرسى
- ٧- الجراوي

٣- تقاليد أهل الأندلس في ذكرى استشهاد الامام الحسين عليه السلام :

قبل أن نقدم نماذج من أشعار الشعراء الاندلسيين نشير الى مخطوط أثري لكتاب مهم في هذا الميدان وهو موجود في جامعة القرويين، واسمه: (اعلام الأعلام فيمن بويح بالخلافة) ومؤلفه: (لسان الدين الخطيب) وذكر فيه عادات الأندلسيين في ذكرى استشهاد الامام الحسين عليه السلام من التمثيل بأقامة الجنائز وانشاد المراثي، وذكر أن هذه المراثي كانت حسينية^(٢)، ونبادر الى نقل وصف المآتم الحسينية في الأندلس على لسان ابن الخطيب كما ذكر في كتابه المخطوط بجامعة القرويين، حيث قال : (لم يزل الحزن متصلاً على الحسين، والمآتم قائمة في البلاد يجتمع لها الناس ليلة يوم قتل فيه — أي ليلة عاشوراء

(١) الأمين، حسن، دائرة المعارف الاسلامية الشيعية، طبع دار التعارف، بيروت، سنة ١٣٩٣هـ.ق، ج ٤، من الصفحة الثالثة حتى الصفحة ٣٢ (عن دولة الأدراسة في الأندلس) وفي الجزء الثالث، من الصفحة ٣١٨ حتى الصفحة ٣٢٧ (عن دولة الموحدين في الأندلس).

(٢) شير، السيد جواد، أدب الطف أو شعراء الحسين عليه السلام، طبع بيروت، ج ٤، ص ١١.

— ولا سيما بشرق الأندلس، يقيمون رسم الجنازة في شكل من الثياب ويُحتفل بالأطعمة والشموع، ويُوقدُ البخور، ويُجلبُ القراء ويُتغنّى بالمراثي الحسينية، وبقيّة من هذا لم تنقطع بعد^(١).

٤— الشعراء الاندلسيون الذين رثوا الإمام الحسين عليه السلام وهجوا بني أمية : من أبرز وأشهر الاندلسيين الذين رثوا الامام الحسين عليه السلام ونظموا أشعاراً في هجاء بني أمية :

أولاً: أحمد بن درّاج القسطلّي، وكان من الشعراء الافذاذ في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، وكان معاصراً لآل «حَمُود» وهم من السادة الأدارسة الحسينيين في الأندلس، وقد نظم قصيدة أشار فيها الى ما عاناه أهل البيت عليهم السلام من مصائب ورزايا، وقال الناقد المشهور ابو الحسن علي بن بسام في كتابه : «الذخيرة» عن تلك القصيدة الغراء : (قصيدة طويلة وهي من الهاشميات الغرّ، لو قرّعت سَمِعَ دَعْبِل بن علي الخزاعي والكميت بن زيد الأسدي لأمسكا عن القول، بل لو رآها السيد الحميري وكثير — عزّة — لأقامها بيّنة على الدعوى، وتبدأ هذه الصيدة ببكاء شجي، بكاء تجهش به قلوب الشيعة في كُلِّ مكان^(٢)).

يقول هذا الشاعر الأندلسي في قصيدته التي تزيد على سبعين بيتاً مشيراً الى الحسين والى آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

الى الهـاشميّ الى الطـالبي	الى الفاطميّ العطوف الوصول
الى ابن الوصيّ الى ابن النبيّ	الى ابن الزبيح الى ابن الخليل
فأنتم هُداةٌ حياةٌ وموت	وأنتم أئمةٌ فعلٌ وقيل
وسادات من حلّ جناتِ عدنٍ	جميع شـبابيهم والكهـول
وانتم خلائف دنيا ودين	بحكم الكتاب وحكم العقول ^(٣)

ثانياً: أبو البحر صفوان بن ادريس التجيبي المرسّي، وهو من شعراء القرن السادس الهجري، وقد ذكره أحد أعلام الفكر في القرن الثامن الهجري وهو لسان الدين بن الخطيب، وقال السيد جواد شبر النجفي في كتابه: «أدب الطف» : (أفادنا ابن الخطيب

(١) المصدر السابق، نقلاً عن مجلة العرفان اللبنانية، مجلد ٥٩.

(٢) الأمين، حسن، دائرة المعارف الاسلامية الشيعية، ج ٤، ص ٢٤.

(٣) المصدر السابق. ٩. تخرم، في الأصل : تتخرم، بمعنى تتشقق من شدّة الحزن، المعجم الوسيط، ص ٢٣٠.

وعرّفنا بأحد شعراء الشيعة في الأندلس، الذي اشتهر برثاء سيدنا الحسين عليه السلام وهو ابو البحر صفوان بن ادريس التجيبي المرسى (٥٦١ - ٥٩٨)، وهذه القصيدة منه كانت مشهورة ينشدها المسلمون وهي :

سلام كأزهار الربى يتنسّم
على مصرع للفاطميين غيّت
على مشهد لو كنت حاضر أهليه
على كربلا لا أخلف الغيث كربلا
مصارع ضجت يثرب لمصاها
ومكة والأستار والركن والصفاء
وبالحجر المثلثوم عنوان حسرة
وروضة مولانا النبي محمد
ومنيرة العلوي والجدع أعولا
ولو قدرت تلك الجمادات قدرهم
وما قدر ما تبكى البلاد وأهلها
لو أن رسول الله يحيى بعيدهم
وأقبلت الزهراء قدس تربها
سقوا حسنا بالسّم كأساً روية
وهم قطعوا رأس الحسين بكربلا
وأسر بنيه بعده واحتمالهم
ونقر يزيد في الثنايا التي اغتدت
هم القوم أمّا سعيهم فمحب
قفوا ساعدونا بالدموع فأنها
ومهما سمعتم في الحسين مراثيا
فمدوا أكفّا مُسعدين بدعوة

على منزل منه الهدى يتعلّم
لأوجههم فيه بدور وأنجم
لعائنت أعضاء النبي تُقسّم
والأفان الدمع أندى وأكرم
وناح عليهم الخطيم وزمزم
وموقف جمع والمقام المعظم
ألست تراه وهو أسود أسحم
تبدي عليها الشكل يوم تحرم
أعول عويلاً بالضمائر يفهم
لذلك حراء واستطير يلملم^(١)
لآل رسول الله والرزاء أعظم
رأى ابن زياد أمه كيف تعقم^(٢)
تنادي أباهما والمدامع تُسجم^(٣)
ولم يقرعوا سنا ولم يتندموا^(٤)
وكأنهم قد أحسنوا حين أجرموا
كأنهم من نسل كسرى ويغنموا
ثناياك فيها أيها النور تلثم^(٥)
مضاع وأما دارهم فجهم
لتصغر في حق الحسين ويعظم
تعبّر عن محض الأسى وتترجم
وصلوا على جدّ الحسين وسلّموا^(٦)

(١) يلملم: يجمع ما تناثر منه، المعجم الوسيط، ص ٢٣٠.

(٢) كيف تعقم: كيف يكون نسلها أبت.

(٣) تُسجم: تجري.

(٤) قرع عليه سنا: صكها ندماً، المعجم الوسيط، ص ٧٢٨.

(٥) تلثم: تقبل.

(٦) شبر، السيد جواد، أدب الطف أو شعراء الحسين عليه السلام، ج ٤، ص ١١ وص ١٢ وص ١٣ نقلاً عن: اعلام الأعلام، لابن الخطيب، وهو مخطوط في جامعة القرويين، ص ٣٧ و ٣٨.

ثالثاً: الجراوي وهو من شعراء دولة الموحّدين الحسنية التي تأسّست في القرن الخامس الهجري في المغرب، ثم امتدّت الى الأندلس، وقال الاستاذ حسن الأمين في دائرة المعارف الاسلامية الشيعية عن الشاعر الجراوي : (ومن قصائده ملحمة في رثاء الحسين عليه السلام وهي تختلف عن تلك المراثي التي تعرفها الشيعة، تُقرأ صبيحة يوم عاشوراء^(١)) وجاء فيها:

أقولُ لحزنٍ في الحسين تأكّدا تملّكُ فؤادي مُتّهماً فيه مُجدا^(٢)
ولو غيرُ هذا الرزءِ راح أو اغتدى لناديتُهُ قبل الوصولِ مُردّداً

عقرتُ بعيري يا امرأ القيس فانزِلْ

وركبُ اذا جاراهُمُ البرقُ يَعرُ تذكّرتُ فيهمُ كربلاً فَتَحَيَّرُوا
وغيداءُ لا تدري الأسي كيف يَخطُرُ بَثَّتْ لهما ما كنتُ بالطفِّ أَضْمُرُ

فألهيْتُها عن ذي تائمٍ مُحولٍ^(٣)

أيا فارساً قَادَ العُرورُ شكائمه فأوردَ في صدرِ الحسينِ صواريمه
تَهَيَّأ ليومِ الحشرِ تجرّعَ علاقمه فما لكَ مَنجى من خصومةِ فاطمه

وما ان أرى عنك العماية تنجلي

رابعاً : محمد بن هاني الأندلسي الذي تحدث عنه الشيخ الأميني في كتابه الخاص بالشهداء برقم (٦)، كما جاء عنه بحث وافٍ في كتاب (ادب الطف) في خمس وعشرين صفحة، ومن أشعاره في هجاء بني أمية :

واعذرْ أُمَيَّةَ إنْ تُغصَّ بريقَها فالهل ما سُقِيَتْهُ والغسلينُ
قدْ قَادَ أمرَهُمْ وَقَلَّدَ ثَغَرَهُمْ منهمُ مهينٌ لا يكادُ يبينُ
أبني لؤي ابنِ فضلٍ قديكم بل اين حلم كالجبالِ رصينُ
لو تتقون الله لم يطمح لها طرف ولم يشمخ لها عرينُ

(١) الأمين، حسن، دائرة المعارف الاسلامية الشيعية، ج ٣، ص ٣٢٤.

(٢) مُتّهماً: ذاهبا الى منطقة قمامة، مُنجداً: ذاهبا الى نجد وكلتا المنطقتين في شبه الجزيرة العربية، المعجم الوسيط، ص ٩٠ و ٩٢.

(٣) مائم: جمع تيممة، وهي : الكتابة التي تعلق في العنف لدفع العين، المعجم الوسيط، ص ٨٩، المُحول : هو الذي مضى عليه حول (أي سنة)، المعجم الوسيط، ص ٢٠٨، ومعنى عجز البيت: لا تنظر الى الشخص الذي في عنقه تيممه وقد مضى عليه عام.

لكنكم كنتم كأهل العجل لم يحفظ لموسى فيهم هارون
لو تسألون القبر يوم فرحتهم لأجاب أن محمداً محزون
ويقول العلامة الأميني في كتابه الخاص بشهداء الفضيلة إن الشاعر ابن هاني الاندلسي
استشهد بأيدي اعداء الله في ٢٣ رجب سنة ٣٦٢.

خامساً : ناهض الوادي الاندلسي وهو من شعراء القرنين السادس والسابع، وقد ورد
ذكره في كتاب (نفح الطيب) لابي العباس المقرئ الذي يُعدُّ مصدرنا الفريد عنه —
والمؤلف — اكتفى بذكر اسمه ونسبه دون تطويل، وأثبت نصَّ قصيدته في رثاء الحسين
عليه السلام دون تعليق كما ذكر سنة وفاته ومكانها ولم يزد شيئاً... — وقد — توفي
رحمه الله سنة ٦١٥هـ ببلدة وادي آش، وبذلك يكون معاصراً لمجموعة من أدباء عصره
الذين عاشوا خلال القرنين السادس والسابع للهجرة، واشتركوا معه في الموضوع نفسه
وهو بكاء سيد الشهداء الحسين بن علي شعراً أو رجزاً أو نثراً وتأليفاً وكانوا حلقة وصل
بينهم وبين غيرهم... ومنهم على سبيل المثال السلطان النصري الشاعر يوسف الثالث من
ملوك بني الأحمر، فقد ضمَّ ديوانه قصيدتين في رثاء الحسين والتعبير عن الولاء لآل البيت
عليهم السلام والدفاع عن التشيع.

وأما ملوك بني الأحمر الذي نظم أحدهم وهو يوسف الثالث قصيدتين في رثاء الامام
الحسين عليه السلام فهم آخر أسرة إسلامية حاكمة في الأندلس حكمت غرناطة من عام
١٢٣٥م والى عام ١٤٩٢م مؤسسها محمد الغالب (توفي عام ١٢٧٣م. هـ) الذي بنى
قصر الحمراء في غرناطة.

وأما قصيدة الشاعر ناهض الأندلسي في رثاء الامام الحسين عليه السلام فهي تقع في
سنة عشر بيتاً على وزن الكامل ورويها الكاف المكسورة ويستهلها الشاعر بتساؤل يتوجه
به الى حمامة يتصورها باكية موهلة مثله على غرار شعراء الوجدانيات مثل أبي فراس
الحمداني وابن شهيد الاندلسي وابن خفاجة وغيرهم ليستفسر عن سبب بكائها... وقد
وفق الشاعر في اختيار السياق العام لصياغة تجربته مستغلاً ما ترمز اليه الحمامة في التراث
الشعري العربي قبله من حزن وأسى ولوعة، ولكنه يجعل مصابه فوق مصابها لأنه ييكي
الحسين قتيل الطف، فرع النبوة الزاكي ويتوعد قاتله بمصيرة المظلم في قعر جهنم... ويبدو
الشاعر الاندلسي موفقاً أيما توفيق في اختيار معجمه الشعري وحسن توظيفه لمجموعة من
الالفاظ ذات الظلال والايحاءات الخاصة مستعيناً في تصوير انكساره بايثار الكسرة لحرف
الرويِّ وبمناجاة الحمامة التي حاول معرفة حزنها الدفين لعله يصل الى اكتشاف سببه
معظمًا من مصابه لانه فوق كل مصاب وحين تتأزَّم نفسه يصرِّح لها بسرَّ معاناته فيقول:

لا تحسبي شكواي من شكواك
أبكى الحسين وأنت ما أبكاك؟
أكرم بفرع النبوة زاكي
بدمائمه نضوا صريع شكاك
فرياً بكل مهتد فتاك

لم تقتنص ليث العرب الشاكي
هيهات! لا، ومُدبر الأفلاك
ما الله شاء ولات حين فكاك

(مصدر القصيدة: كتاب نفح الطيب ج ٥، ص ٧٠ - ٧١)

(٢) قصيدة من بحر الرمل المقصور، في كل مصراع «فاعلاتن فاعلاتن فاعلان» نظمها كاتب المقالة (د. حسين جوين).

والى حين مماتي يا حسين
قلت في روحي وذاتي يا حسين
هامساً في حركاتي يا حسين
هاتفاً في صرخاتي يا حسين
دائماً في رضعاتي يا حسين
قائلاً في حبواتي يا حسين
كانت أولى كلماتي يا حسين
قلت من بعد صلاتي يا حسين
نادياً في سنواتي يا حسين
أنت حلّ العضلات يا حسين
في صباحي في سباتي يا حسين
قولي من قبل وفاتي يا حسين
يأتي صوت من رفاتي يا حسين
يا غريب الغربات يا حسين

لو كنت مثلي ما افقت من البكا
ايه حمامة حبريني انني
أبكى قتل الطف فرع نبينا
ويل لقوم غادروه مضرجاً
متعفراً قد مزقت أشلاؤه
ثم يخاطب الشاعر يزيد قائلاً:

أزيد لو راعيت حرمة جدّه
اتروم ويك شفاعة من جدّه
ولسوف تُنبذ في جهنم خالداً

نذيت طول حياتي يا حسين
أنني مذ كنت في صلب الوجود
كنت في الرحم جنيناً واقول
والى الدنيا أتيت في صراخ
ثم أمي ارضعتني وتقول
صرت احبو واقوم لاسير
ثم أمي علّمتني بالكلام
وأبي علّمني كيف الصلاة
وقد امضيت بعمرى سنوات
واذا معضلة جاءت اقول
هكذا كنت بليلاً ونهار
واذا موتي أتى في الاحتضار
ثم بعد الدفن في لحد مخوف
ويوم النثر اذا احى اقول